المورد

مجلة تراثية فصلية محكمة

تصدر عن دار الشؤون الثقافية العامة - دار الشؤون الثقافية العامة

المجلد الرابع والثلاثون

العدد الثاني - ٢٠٠٧م - ١٤٢٨هـ

رئيس مجلس الإدارة
د. عامر حسن فياض

رئيس التحرير
د. محمد حسين الأعرجي

الهيئة الاستشارية
د. نجاة الحديثي
د. عماد مطر الموسوي
ا. يوسف كريم الركابي
أ.د. نوري جعفر سلوم
خالد المطلبي
الاستاذ حسن عربي

هيأة التحرير
نائب رئيس التحرير
احمد عبد زيدان

سكرتير التحرير
محمود الظاهر

التصحيح اللغوي:
سليم سلمان
نجلة محمد
امل عبد الله

الإشراف الفني والتصميم
جنان عدنان لطيف
ياسر بدر ياسم

الأسعار

العراق: ٥٠٠ دينار، الأردن: ديناران، الإمارات: ٢٠ درهماً، اليمن: ٣٠ ريالاً، مصر: ٣ جنيهات، ليبيا: ٣ دنانير، الجزائر: ٦٠ ديناراً، تونس: ديناران، المغرب: ٣٠ رهماً.

عنوان المراسلة

دار الشؤون الثقافية العامة - الأعظمية - ص.ب: ٤٠٣٢ بغداد جمهورية العراق
هاتف: ٤٤٣٦٠٤٤

المشاركة السنوية

٥٥ دولاراً في الأقطار العربية.

لوحة الغلاف/ رافع الناصري

Email: dar-iraqculture@yahoo.com

المحتويات

* كلمة رئيس التحرير ٣ ـ ٤

* [illegible] ..... أسماء حسن الأعظمي ٥ ـ ٢٢

* [illegible] ..... [illegible] محمد الحسن ٢٣ ـ ٣٢

* [illegible]

في الفرزدق [illegible] ..... د. طارق نافع الحمداني ٣٣ ـ ٤١

* [illegible] ..... د. وليد عبد المجيد ابراهيم ٤٢ ـ ٤٦

* [illegible] ..... عاطفة التكريتي ٤٧ ـ ٦٩

* [illegible]

الاختلاف والمائل في الدوابيت ..... د. محمد جواد محمد سعيد ٧٠ ـ ٨٢

[illegible]

ديوان أبي الفرج الببغاء

النسخة الكاملة / القسم الخامس ..... شاكر العاشور ٨٣ ـ ١١٨

[illegible]

للعلامة الدكتور مازن المبارك

[illegible] ..... عبد العزيز ابراهيم ١١٩ ـ ١٤٢

[illegible]

معجم الشعراء المخضرمين

اعداد / د. عويض عبد الرحمن ..... نقد / مهدي عبد الحسين النجم ١٤٣ ـ ١٤٧

اخبار التراث العربي

اخبار التراث العربي ..... اعداد / حسن عربي الخالدي ١٤٨ ـ ١٦٠

مركز تحقيقات كامپيوترى علوم اسلامى

الذروات الإنسانية في شعر الجاهلية

عطا طه النكريتي

يتبين لنا من خلال الدراسات التأريخيّة والأدبية ان حياة العرب في العصر الجاهلي كانت تخضع لمقاييس وعوامل بيئية ضيقة وتقاليد تقوم على الولاء وما تستوجبه حالات الارتباط الاجتماعي من مواقف ضمن كيان القبيلة، فالقبيلة كيان له مكانته في حياة المجتمع العربي القديم، وللعربي موقف ثابت من العوامل المؤثرة في تلك الحياة وما يشوبها من تناقضات تؤدي الى ظهور سلبيات ومآسٍ مريرة عبر صراع عنيف تكون نتائجه فناء الكثيرين من رجالات تلك القبيلة وبالرغم من شدّة ذلك الارتباط وقيوده فإن الولاء القبلي لم يلغ في كلّ الأحوال كيان الفرد ودوره في بناء الحياة أو غياب شخصيته وذاته ضمن مستجدات الظروف الصعبة ومطالب القبيلة ومستلزمات العيش في كنفها. فلقد كان العربي يمتلك من الصفات والخصائص ما تعكس لنا الصور المشرقة الواضحة التي سرعان ما تغيّر الافكار التي يشوبها الاضطراب في تصور مجتمعه وسماته الماثلة في اذهان الكثيرين من الدارسين وتمنح أبعاداً وصوراً متكاملة لمعرفة حقيقة الحياة العربية في الجاهلية وما يضطرب فيها من احداث وما تعج به من تكامل إنساني ووجود حقيقي حيث تتحرك في اعماق بنيها امال والام وتطلعات لاتخلو من ظواهر الابداع بالرغم من صعوبة اجوائها وما تملي ظروف العيش الصارمة من حالات التناقض والتنافر ويعدّ الشعر الجاهلي من اقدم الوثائق التاريخية واصدق المصادر التي وثقت لنا الكثير من خصائص ومعالم حياة العرب في جاهليتهم، نستجلي منه أنبل المواقف الانسانية واسمى معاني البطولة الصادحة بالمآثر والقيم. فالشعر الذي بين ايدينا يمثل جوانب مشرقة من تلك القيم ونظرات عميقة تستهوي المتلقي المتشوق الى المورد النمير وتعبر عما تقتضيه الحياة على وفق مفاهيم وجودية خاصة تعكس جوانب مهمة من طبيعة العصر وما فيه من اشراق وايجابية ومعالم سلبية بواقعية محرورة بلفح الحياة ومعانيها الصادقة وبذلك يعطينا التصور الصحيح عن قيمه ومواقفه ونظرته السديدة والفضائل الكريمة التي تتجاوز في كثير من المواقف اطار العصر تحمل معها ظاهرة الفضيلة محتفظة بقوتها وسموها معبرة عن وجود متواصل تشهدها العصور ويتحلى بمعانيها الانسان وهو يرى من خلال ذلك

الموروث جملة من حالات الإشراق والإبداع.

ان صوت الشاعر الجاهلي في تلك القيم والمآثر والمثل الرفيعة لم يولد نتيجة متطلبات مادية انية سرعان ما تنتهي تأثيراتها فتنطفئ شعلة العبقرية فيه فيتحول الى مجرد حالة من حالات اللغو والسفسطة وبلا هدف وبلا معنى فصوت الشاعر الجاهلي هو صوت الفطرة التي ولدت مع الانسان (وربما يخفت اذا تراكبت الضغوط على النفس الانسانية او انطبقت عليها ركامات من تقاليد صارمة ومطالب مرهقة وهموم شتى)[1] ولكن مع ذلك يبقى صوت الفطرة هذا نقياً مادام يتسرب من تطلعات النفس الانسانية لاثبات وجودها وذاتها ومن خلال ما تتهيأ للشاعر من فرص تتيح له ان ينطلق في اجواء الابداع والحرية، يستلهم الفاظه وافكاره وجوه الروحي العام من لهب المعارك ومن بساطه العيش وقسوته ومن تقاليد واعراف لا يتخلى عن طبيعتها القبلية نادراً حين ترفضه القبيلة فيتمرد عليها كما نلاحظ ذلك عند الصعاليك.

ترك الشاعر الجاهلي منذ بداية تأريخ نشاطه الفكري رصيداً وافراً بين حقيقة كون الشعر صوتاً مفعماً بكثير من حالات الوعي المتكامل لمتطلبات الحياة عاكساً الصورة المثلى للانسان الشاعر الساعي الى تحقيق افضل ماهوموجود من صور الحياة في مجتمعه رافضاً الجوانب السلبية فيه حيث يكاد شعره ينفرد في كثير من جوانب التعبير وجملة فنونه بميزة الكشف عن الذات والافصاح عنها بشكل واضح ومن غير ضلالة ومخادعة ومن ثم ذكر ما يختلج في داخل نفسه من احاسيس وعواطف لاتغلب عليها الجوانب الفردية بقدر ما انها تعبّر عن ذات لا تظهر منعزلة في محيطها الانساني وانما يحيا الشاعر في غمراتها الجماعية، فحديث الذات الخاص ضيق المسالك محدود النماذج اذا ماقيس بحديث مجمل في شتى مواضيع الحياة يبدو من خلال تصور ذاتي الا انّ ما ينعم به من قيم وفضائل وحكمة تعطيه صفة عامة وهذا يقودنا الى القول بأن حديث الذات مهما توسع لا ينفصم عن القيم العامة فهذا عنترة يمتزج حديث الذات عنده بما عليه من ابداع ونزعة تحرر تجسد الكثير من السمات والمعاني الانسانية فينشد باعتذار.

وان اك اسوداً فالمسك لوني

وما لسواد جلدي من دواء

ولكن تبعد الفحشاء عني

كبعد الارض عن جو السماء

اليس هذا الصوت يفصح لنا عن ذاتية انسان فريد عن انسان سديد عبقري يحتضن المآثر قل ان نجد مثله في عصرنا هذا.

تعيرني العدا بسواد لوني

وبيض خصائلي تمحو السوادا[2]

إني امرؤ سمح الخليقة ماجد

لا اتبع النفس اللجوج هواها[3]

واضافة الى ماعرف عنه من كرم وعفة وترفع عن الذل، فقد اختار الطريق الامثل لحياة الاقدام والبطولة وليس حياة الدعة والخمول والعزلة وبذلك استشعر قيم ذاته المشرقة العميقة النظرات المتطلعة الى صور سلمية خالدة بعيداً عما يسود مجتمع القبيلة من صراع وخصومات تفتقد عندها حالات الامان ويختل نتيجتها التوازن

لايصلح الناس فوضى لاسراة لهم
ولاسراة اذا جهالها سادوا[٥]

والاثم داء ليس يرجى برؤه
والبر برء ليس فيه معطب

والصدق يألفه اللبيب المرتجى
والكذب يألفه الدنيّ الأخيب[٦]

وعلى الرغم من متطلبات الحياة القاسية في ذلك العصر وضيقها ومحدودية متطلباتها وماتشهده من فراغ مملّ، فإننا نجد الكثير من لمحات التفاؤل وصور التحدي لتلك القسوة ومصاعبها، فالروح المتفائلة بقيت تتضوع بانسام عطرها مثلما تزداد اشراقة بضوء معانيها واستشراف دلالات المستقبل المفرح.

وكل شديدة نزلت بقوم
سيأتي بعد شدتها رخاء[٧]

وفي الارض منأى للكريم عن الاذى
وفيها لمن خاف القلى متعزل[٨]

ونلاحظ في مضمار القول الدقيق واجواء الحكمة ما ينبغي ان يكون عليه المرء الحصيف والذات المعبرة عن ملامحها الانسانية عبر مسيرة الحياة بحيث تمتزج معاني التمرد من خلال النزعة الاستقلالية مع القيم والفضائل والمكارم فنجد امامنا شخصية انسان نادر تنبذ المفاهيم التي تجافي الفطرة السليمة وتضفي على نفسها بشيء من الفخر صفات يندر وجودها عند الاخرين.

ما بالثراء يسود كلّ مسود
مثرٍ ولكن بالفعال يسود[٩]

اقسم جسمي في جسوم كثيرة
واحسو قراح الماء والماء بارد[١٠]

لقد حاول العربي في الجاهلية التحرر من النزعات المادية وما خلف ذاته من ظواهر مرضية ليرسم لنفسه صورة فارس شجاع مقدام مشبع بالقيم والمآثر الانسانية الرفيعة، وليس غريباً ان نجده يستهجن الغدر ويشجب الاعتداء والجور والصفات الذميمة فهو لا يتردّد أمام ظواهرها من القتال حفاظاً على مفاخره وعلى ما يلزم من موقف انساني وبروح أبية.

اذا ما الملك سام الناس خسفاً
ابينا ان نقرّ الذل فينا

الا لايجهلن احد علينا
فنجهل فوق جهل الجاهلينا[١١]

ونحس في اشعار العرب بنبرات حادة وقوية فيها من الترفع مايدل على التزام الموقف النادر القوي الرافض لحالات التردي التي تثلم كرامة الانسان. فيأبى الشاعر العربي ان يتلبس بالضعف مثل ما يأبى ان يتلبس بالخنى ويوصم بالعار.

وفي الارض منأى للكريم عن الأذى
وفيها لمن خاف القلى متعزل

ولكنّ نفساً حرة لا تقيم بي
على الذام الا ريثما الخول[١٢]

ان تأمل تفاصيل النهج المتميز عند العرب قبل ان تنبثق ثورة الاسلام كفيل بكشف العوامل التي بقيت كامنة وراء الصور الاخلاقية في تراثهم الفكري وبالاخص الابداع الشعري وحديث الحكمة والقول المأثور. ولذلك بقيت في حياة العرب ذات اهمية بالغة لانها ترتبط بمعاني القوة التي تصون المحرمات وتذود عن الحمى وتعظم الخصال الحميدة وتدافع عنها وقد (بعثت في نفوس اصحابها ضرباً من التسامي والاحساس

بالمروءة الكاملة فاذا هم يتغنون دائماً بمجموعة من الفضائل والخصال الحميدة)[١٣]. ويفيض كلامهم بالحالات النادرة من كرم ووفاء وألفة وحلم وعزة وصبر على الشدائد والحفاظ على العهد وتحمل المشاق من أجله ومن الخصال التي نادراً ما نجدها عند غير العرب تجنب الغدر كسمة توضح لنا عظمة ما كانوا عليه من توازن أخلاقي كذلك الاقرار ببسالة الخصم ومكانته والنظر الى الشجاعة نظرة شمولية لا تحكم بجانب دون آخر (وطبيعي ان يدفعهم هذا الخلق الى ان يكونوا منصفين حتى مع خصومهم لأنّ الفطرة العربية السليمة تملي على صاحبها ذلك على الرغم من كل الاعتبارات التي تحيط بالمجتمع العربي انذاك وعلى الرغم من كل القيم المتعارف عليها في خضم ذلك الوسط القبلي المتزمت[١٤].

ان اكثر الخصومات التي كانت تنشب بين قبائل العرب، رغم ضراوتها وقسوتها كانت لا تفضي الى انقطاع أواصر التضامن والتعاضد التي يحسّها العربي في داخله بشكل دائم لانها اصرة شعرية اختص بها العرب لتشدّ بعضهم الى بعض مع ان الشعراء لم يكونوا يفصحون عنها بصراحة وانما بقيت كامنة داخل نفوسهم ولقد كانت مسؤولية الفارس العربي مسؤولية اجتماعية تتمثل بطولته في حماية الذمار والدفاع عنها وعن قومة امام الاعداء يقتحم الحروب ويجد في الموت دونهم مفخرة.

فبئس الفتى ان كنت اعور عاقراً
جباناً فما عذري لدى كل محضر[١٥]

وحين (يؤول الامر الى المواجهة القومية لخطر العدوان الاجنبي المكشوف تذوب الفروق القبلية نفسها حتى يواجه المتأمل حالة متميزة تستقطب في مضمارها كل الخلافات والحزازات بين الارهاط والقبائل في سبيل تحقيق اصالة اقتدار الامة على المواجهة دفاعاً عن ارضها وكرامتها واصالة تاريخها[١٦].

ولا بدّ ان تتجسّد أمامنا اذا ما اردنا البحث في موضوع الفروسية صورة الشاعر الفارس الذي ما زال يملأ اسماعنا ببسالته وفروسيته التي لا تقتصر على الجانب القتالي وانما بمثله الخلقية الرفيعة فهو مع فروسيته وبذله نفسه في سبيل قومه سمح السجايا سهل المخالطة والمعاشرة لا يبغي على غيره ولا يحتمل البغي ولا يظلم ولكنّه لا يستكين للظلم[١٧].

اني امرؤ سمح الخليقة ماجد
لا أتبع النفس اللجوج هواها[١٧]

وحين يصرخ عمرو بن كلثوم في معلقته بعنفوان وكبرياء

اذا ما الملك سام الناس خسفاً
أبينا أن نقرّ الذلّ فينا

نجد في قوله هذا واقواله الاخرى شيئاً مشرقاً من قانون الحياة كان قد ادركها وسبق الاخرين في تجليها واستيعابها.

ان عناصر القوة لم تكن مطلوبة لذاتها في الاعراف والتقاليد العربية وانما كانت مطلوبة لتكون قاعدة لبناء الفضائل والمكارم وترشيح القيم الانسانية وتتشخص لدينا في كثير من ابعاد تلك القيم اضافة الى شخصية الرجل شخصيّة المرأة من خلال مشاركتها في تقريرها كموقف بطولي قتالي يتمثل عمقه جانب اخلاقي يتحكم

في طبيعة علاقة العربي بخصمه وانجراره وراء الواقع الانساني الذي يحث عليه عرف موروث تؤطره المعاني والقيم فقد كان للمرأة نصيب في تجنيب قومها ويلات الحرب واخماد نارها وهنالك في اسفار التراث دلائل عميقة على جهدها في هذا الميدان.

ان الفروسية عند العرب بشكل عام (لم تكن فروسية حربية فحسب بل اصبحت فروسية سامية فيها الحبّ الطاهر العفيف الذي يجعل من المحبوبة مثلا اعلى والذي يرفع صاحبه عن الغايات الجسدية الى غايات روحية تنم عن صفاء النفس ونقاء القلب)[١٨]. وبالرغم من ان المجتمع الجاهلي بفطرته يحمل الكثير من الممارسات الاجتماعية المتخلفة إلا ان وعي الانسان الشاعر كان يعرض لها ويشخص عيوبها وسلبياتها ويرفض ما اسودت من صورها وساء افشاؤها بين العامة بالوقت الذي يشيد بالمثل الرفيعة ويعمد الى حشد جوانبها التربوية والاخلاقية في موسوعاته الشعرية ايماناً بها وبقدسيتها.

والضيف اكرمه فإن مبيته حق
ولا تك لعنة للنزل
واعلم بأن الضيف مخبر اهله
بمبيت ليلته وان لم يسأل
ودع القوارص للصديق وغيره
كيلا يروك من اللئام العزل
وصل المواصل ما صفا لك ودّه
واحذر حبال الخائن المتبدل
واترك محل السوء لا تحلل به
واذا نبا بك منزل فتحوّل[١٩]

وتطالعنا في وصية الاعشى لولده صورة شخصية انسان جرّب الحياة واستوعب امورها ونضجت خبرته فيما عليها من قيم اخلاقية وعلاقات اجتماعية فيقول.

سأوصي بصيرا ان دنوت من البلى
وحسبك من ساس الامور وجربا
بأن لا تأبى الودّ من متباعد
ولا تنأ من ذي بغضة ان تقربا
فإن القريب من يقرب نفسه
لعمر ابيك الخير لامن تنسبا[٢٠]

واذا كان الشعراء قد تطرقوا الى الجوانب المشرقة من الظواهر الاجتماعية فإنهم قد ذمّوا الجوانب السلبية منها والتي تسيء الى من يتبناها في حياته مثل المصانعة والغدر والاستكبار كما شخّصوا النفاق والحمق.

صنع بأثناء المقالة دائب
بين الاقارب بالخنا والمأثم
اما اذا لقي العدوّ فثعلب
وعلى الاقارب شبه ليث ضيغم[٢١]

وبعض شعر اهل البادية وسكان الصحاري رغم ما كانوا عليه من بداوة وبساطة يعكس لنا وجهاً من وجوه التطور الاجتماعي.

لا تقولن اذا لم ترد
ان تتمّ الودّ في شيء نعم
حسن قول نعم من بعد لا
وقبيح قول لا بعد نعم
اكرم الجار وارعى حقه
ان عرفان الفتى الحق الكرم

انّ شرّ النـــاس من يكثر لي

حين يلقاني وان غبـت شـتم[٢٢]

لقد تحددّت رسالة الشاعر العربي بـالتزامية واعية وشعور فياض بالمسـؤولية وتفاعل حـي مع الواقـع والاحداث مدركاً خطورة الدور في تحمل اعبـائها وكان من الطبـيعي ان يمنح ذلك التفاعل وتلك المشـاركة الوجدانية شعراً نابضاً بالفعل الحي العاكس للحياة بـكل زخمها ومعانيها ففي صميم معركتها كان يختار الفاظـه وافكاره وجوه الروحي المشبع بالمظاهر الحيّة للحـياة مستمداً من بساطة العيش وقسوته ومن تقاليد القبـيلة وشعائرها ومناخها وطبيعتها وجوده الذاتي فهو يصرح بشيء من عزّة النفس قائلاً.

أبت لي عفتي وابى بلائي

واخذي الحمد بالثمن الربيـح

واعطائي على المعبور مالي

وضـربي هامة الـبطل المشيح

وقولي كلما حشأت وجاشت

مـكانـك تـحمدي أو تستريحـي

لا دفع عن مكارم صالحات

واحمي بـعد عن عرض صحـيح[٢٣]

لقد كان من طبـيعة النظام الاجتماعي الذي فرضته حياة الصحراء على العربي ان تملي عليه نوعاً اخر من الصراع تحدياً لاطماع الغربـاء من فرس وروم والعمل على رفض العيش في ظل سـيطرتهم حـيث الشحـة والاضطراب بشكل متواصل بـين الانتاج والاسـتهلاك فضلاً عن وقوع انماط من الصراع كان لتلك الفئتين دور في تأجيجه ما بـين القبـائل ومع ذلك فإن (من اولى الملامح التي تطالعنا في موقف العربي من الحـرب هذا التوجه الاصيل الى انكار الذات تمسكاً بالهوية القـومية التي تمثلت في حدود العصر بالانتماء القبلي)[٢٤]. حـيث تتأصل مهمة الدفاع في نفس العربـي فلا يرى نفسـه مسؤولاً عن الدعوة المطلقة والعابرة والنداء السـريع. وانّما يعدّها للمسائل الكبرى ويهيّئ وجوده لما عظم من المواقف الشديدة فتنفجر الصيحة داخلة لتنطلق معها كل العزائم وتتثب المطامح وتخفق كل خافقة خير لتصب في مجرى الموقف القومي وتيار المواجهة الحاسـمة وهي موصولة الاحاسيس والمشاعر موحدة الاهداف عظيمة الاثر عزيزة الجانب.

اذا ما قيل بالحماة قوم

فنحـــن بـــدعوة الداعي عنينا

(ان استثارة الحماس والهاب المشـاعر واسـتلهام الاحـداث الكبـيرة لتثويب النفوس والتذكير بـالخصال الحـــــميدة التي عرف الناس فيها معاني الرجولة واسـتذكروا احـياءها صورة الوجدان التاريخي كانت تعطي الشعر مذاقاً حياً وطعماً وجدانياً يضاعف في دلالته معاني الاندفاع ويوقد في اجزائها لهيب المقـاومة)[٢٥]. وبذلك اقترن الشعر عند العربي ليس بالمعنى الانسـاني فحسب وانما بالحكمة التي بقيت تعطر ايامه حتى ظهور الاسلام الذي هذب العقول مثلما هذب النفوس.

مركز تحقيقات كامپيوترى علوم اسلامى

الهوامش

١ــ القيم الانسانية في الشعر الجاهلي جليل رشيد ــ مجلة اداب الرافدين ــ جامعة الموصل العدد السابع لعام ١٩٧٦.

٢ــ كيف لا تستوعب ذات الشاعر عنترة ابن شداد تحقيق محمد سعيد المولوي ــ دمشق ١٩٧٠.

٣ــ المصدر السابق نفسه. ٤ــ المصدر السابق نفسه.

٥ــ الشعر والشعراء ص ١٤٩.

شهرته الأفوه الأودي الشعر لصلاءة بن عمر بن مذمج ويكنى ابا ربعة.

٦ــ ديوان طرفة بن العبد مجموعة صاد بيروت.

٧ ـ الاغاني ٣ص ١ــ الاصفهاني ــ الشعر لقيس بن الخطيم شاعر الاوس ــ دار الكتب بيروت.

٨ــ لامية العرب ــ الشنفري ــ شرح وتحقيق د. محمد بديع شريف ــ دار مكتبة الحياة بيروت.

٩ــ ديوان عروة بن الورد ــ شرح ابن السكيت ــ تحقيق عبد المعين الملوحي ــ وزارة الثقافة السورية.

١٠ــ المصدر السابق نفسه.

١١ــ شرح القصائد العشر / الخطيب التبريزي ــ معلقة عمرو بن كلثوم ــ تحقيق محمد محيي الدين ــ ١٩٦٤.

١٢ــ لامية العرب/ الشنفر ــ شرح وتحقيق د ــ محمد بديع شريف ــ دار مكتبة الحياة ــ بيروت.

١٣ــ شعراء من الماضي ص ٣٤ كامل العبد الله ــ منشورات دار مكتبة الحياة ــ بيروت.

١٤ــ دراسات في الشعر الجاهلي ص ١٠٤ د. نوري القيسي ــ دار الفكر بيروت.

١٥ــ المفضليات ص ٣٦٠ المفضل الضبّي ــ الشعر لعامر بن الطفيل ــ تحقيق احمد شاكر وعبد السلام هارون دار المعارف مصر.

١٦. دراسات الاجيال عدد ٢ مقالة حول القيم الانسانية لشعر الحرب ص ٥٦ محمود عبد الله الجادر.

١٧ــ ديوان عنترة ص ٣٠٧ تحقيق محمد سعيد مولوي ــ دمشق ــ ١٩٧٠.

١٨ــ تاريخ الأدب العربي ــ العصر الجاهلي ص ٣٧٤ د. شوقي ضيف ــ دار المعارف مصر.

١٩ــ المفضليات ص ١١٦ ــ المفضل الضبي ــ تحقيق احمد محمد شاكر ــ عبد السلام هارون ــ الابيات لعبد قيس بن خفاف ــ دار المعارف مصر.

٢٠ــ حماسة البحتري ص ١٧٤ تحقيق ونشر لويس شيخو ــ طبعة ثانية ــ دار الكتاب العربي ــ ١٩٦٧.

٢١ــ حماسة البحتري ص ٢٧٤ تحقيق ونشر لويس شيخو ــ طبعة ثانية دار الكتاب العربي الشعر يبهس بن ضمرة الضبي.

٢٢ــ الشعر والشعراء ص ٣١١. ٢٣ــ الشعر لعمرو بن الاطنابة.

٢٤ــ مقالة حول القيم الانسانية لشعر الحرب ــ محمود عبد الله الجادر ــ مجلة دراسات الاجيال ــ العدد الاول والثاني لسنة ١٩٨٢ ص ٩٤.

٢٥ــ من حديث الفخر في الشعر العرب قبل الاسلام د. نوري حمودي القيسي ــ مجلة دراسات للاجيال ح٣ ص ٩٠.

المصادر

١ــ مجلة الرافدين ــ العدد السابع ١٩٧٦ ــ جامعة الموصل.

٢ــ ديوان عنترة بن شداد ــ تحقيق محمد سعيد الموسوي ــ دمشق ١٩٧٠.

٣ــ الشعر والشعراء.

٤ــ ديوان طرفة بن العبد ــ مجموعة صاد بيروت.

٥ــ الاغاني ٣ــ الاصفهاني.

٦ــ لامية العرب ــ شرح وتحقيق د. محمد بديع شري دار مكتبة الحياة بيروت.

٧ــ ديوان عروة بن الورد ــ تحقيق عبد المعين الملوحي ــ وزارة الثقافة السورية.

٨ــ شرح القصائد العشر ــ التبريزي ــ تحقيق محمد محيي الدين ١٩٦٤.

٩ــ شعراء من الماضي كامل عبد الله ــ دار مكتبة الحياة بيروت.

١٠ــ دراسات في الشعر الجاهلي ــ د. نوري القيسي ــ دار الفكر ــ بيروت.

١١ــ المفضليات ــ المفضل الضبي ــ تحقيق احمد محمد شاكر ــ عبد السلام هارون ــ دار المعارف ــ مصر.

١٢ــ تاريخ الأدب العربي ــ العصر الجاهلي د. شوقي ضيف ــ دار المعارف ــ مصر.

١٣ــ حماسة البحتري ــ تحقيق لويس شيخو ــ الطبعة الثانية ــ دار الكتاب العربي ــ بيروت.

١٤ــ مجلة دراسات للاجيال ــ العدد الاول والثاني ــ ١٩٨٢ والعدد الثاني الجزء الثالث.

في نقد النقد
القراءة المعيبة في نقد الشعر عند قدامة بن جعفر

د: نادية هناوي سعدون
كلية التربية/ الجامعة المستنصرية

المبحث الاول
تعريف القراءةالمعيبة لغة واصطلاحا

قال صاحب اللسان نقلاً عن ابن سيدة إن العاب والعيب الوصمة والجمع أعياب وعيوب. والعاب والمعيب العيب. وقوله تعالى (فأردت أن أعيبها) أي أجعلها ذات عيب يعني السفينة. والمعايب العيوب وشيء معيب ومعيوب ومعاب أي عيب. والعرب تقول: المسار والمسير والمعاش و المعيش والمعاب والمعيب.

واصطلاحا : فعل كتابي بترصد مواطن الرداءة، ومواضع السوء في النص المقروء ، وبناء على تصور تنظيري سلبي يتسلط فيه القارئ بفضح عيوبه وإكراه المتلقي على تقبل ما تطرحه عليه من السلب والتغريب والتهميش والتخطئة أحياناً. وقد طرق ابو الفرج قدامة بن جعفر في مصنفه (نقد الشعر) هذا النمط من القراء النقدية؛ بعد أن وجد أن من تحدثوا في علم الشعر بمعز تخليص جيده من رديئه قد تخبطوا؛ فقليلاً ما يصيبون وأنهم قصروا عن وضع كتاب في جيد الشعر ورديئه فكان ذلك كله دافعاً له إلى تأليف كتاب (نقد الشعر).

وإذا كان القسم الأول من كتابه مخصصاً لاصطيا عيوب الشعر؛ عبر قراءات نقدية توزعت بين العناصر الاربعة التي حددها قدامة وهي (اللفظ والمعنى والوزن والقافية)، وما ينتج عنها من ائتلاف بعضها ببعض من عناصر مركبة، فلماذا أعطى قدامة العيوب هذا الاهتما وهل كان مصيباً في قراءاته تلك؟ وما الغاية التي كان يسعى وراءها؟ ولماذا قصر تمثيله واستشهاداته على نصوص شعرية معروفة، ولم يضف إليها من النصوص

الشعرية المحدثة إلا النزر اليسير؟ هل كان منساقا وراء التعصب للقديم واستهجان المحدث؟ وهل أكره القراء أو المتلقين على موافقته على تلك القراءات المعيبة؟ أكان يبغي بعمله هذا التمرد على المعاهدة الأدبية أو العرف المعتاد، وأن يكون حكماً وجلاداً معاً؟

ولأجل الإجابة عن هذه الاسئلة وغيرها سنحاول أن نقدم توضيحاً ووصفاً لمظان تلك القراءات أو مواضعها ثم نتبعهُ برصد قرائي لأهم سماتها أو مميزاتها؛ لنخرج بمحصلة تلخص بعض الإجابات وتعطي الأسئلة المقدم ذكرها بعض التعليلات.

المحبث الثاني

مظان القراءة المعيبة في نقد الشعر

لقد توزعت مظان القراءة المعيبة بين العناصر البسيطة والمركبة في الشعر، فأما البسيطة منها فهي (اللفظ والمعنى والوزن والقافية) وقد اقتصر العنصر الأول(اللفظ) على المعاظلة في حين شملت مظان القراءة المعيبة للمعنى أغراض الشعر ومعانيه وهي (المديح والهجاء والمراثي والتشبيه والوصف والغزل ومعان عامة) وذهبت مظان القراءة المعيبة للوزن إلى الآتي:

١] الخروج على العروض

٢]التخليع

٣]الزحاف

وفيما يتعلق بمظان القراءة المعيبة للقافية فقد تحددت بـ:ـ

١] الاقواء

٢]التجميع

٣]الإيطاء

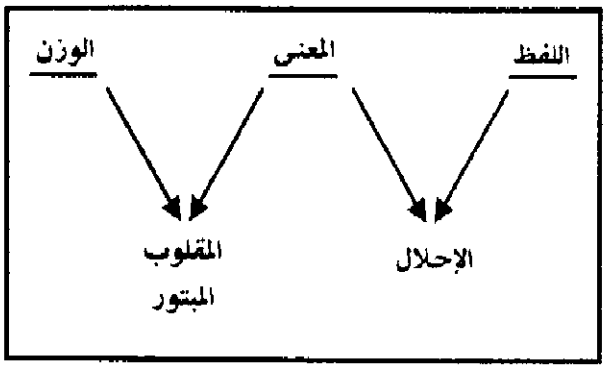

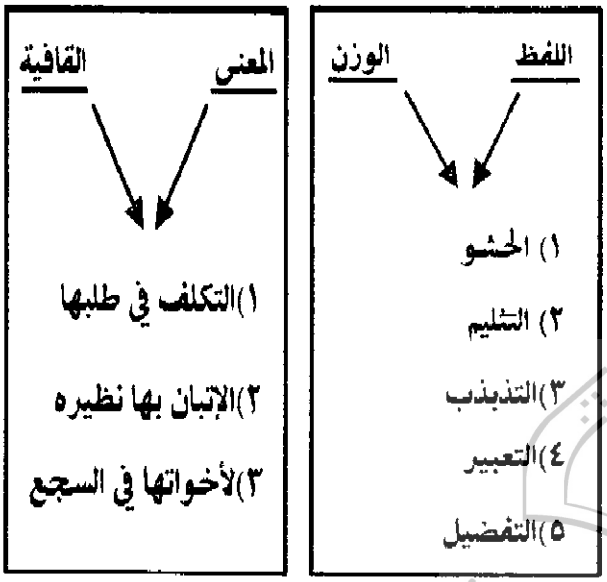

٤]السناد

وأما العناصر المركبة فقد تشكلت مظان قراءاتها المعيبة كالآتي:ـ

وإذا كان مجموع المظان ستة وعشرين موضوعاً في القراءة المعيبة، فإن حصة العناصر البسيطة منها كانت نسبتها أعلى من حصة العناصر المركبة بما يقارب ٧٥%، فضلا عن ابتسار المظان الباحثة في عيوب القافية. فلم يتكلم قدامة بن جعفر على ائتلاف اللفظ مع القافية ولا ائتلاف الوزن مع القافية. وقد يعود السبب إلى أن قدامة لم يجد أمثلة تحقق له صحة تقسيماته المنطقية تلك؛ فالأدب (شعراً أو نثراً) إبداع قد يخالف المألوف والمنطقي.

المبحث الثالث

سمات القراءة المعيبة عند قدامة

امتازت القراءة عند قدامة بسمات كثيرة أهمها:ـ

اولاً: إنها معيارية تكيل بمكيالين وتناقض بعضها بعضاً أحياناً.

إن المفهوم المعياري يمثل نظاماً أو مساراً يحدد أفق الكتابة النقدية، ويضبط سننها التي بها يواجه الناقد فهم المتلقي، ويمكنه من تذوق النص الشعري بشكل قسري أو جبري لا عدول عنه... وهذه السلطة التي يمارسها الناقد تتأتى من هذا الإلزام المعياري الإخضاعي الإتباعي. وهكذا صارت الرؤية القرائية تقوم على أحادية الناقد بدلا من ثنائية الناقد/ الشاعر وقد شكل الإطار المرجعي أفقا موحدا في عملية الإبداع والقراءة وكأنهما بنية موحدة بين المبدع/ الشاعر والقارئ/ الناقد. وهذا ما أساء إلى عملية التوصيل بسبب الانقطاع المتسع الدلالة بين الاثنين معا؛ فكان هذا الاطار متميزاً بالكثافة والإيحاء والغموض والغرابة بما يجعل القراءة مغامرة وكشفاً، ويسميها في أحايين كثيرة بالتناقض والتضاد[1]. والأمثلة على هذا التوجه في القراءة عند قدامه كثيرة منها ما ذكره في مجال الحديث عن عيوب اللفظ فحددها في (اللحن والجري على غير سبيل الأعراب وعدم الاستعمال والشذوذ والوحشية)[2]، فجعل منها معايير لقياس جودة الشعر أو رداءته لكنه أجاز للقدماء؛ ذلك أنهم لا يأتون بها إلا على سبيل السجية، وعدم التكلف[3]، وبما يعطي طرق هذه العيوب المشروعية في الشعر للقدماء وينفيها عن المحدثين الذين أسماهم (أصحاب التكلف) من خلال الاستشهاد بالأبيات من دون التعليق عليها بقراءة توضح للمتلقي مواطن العيب اللفظي.

وقد يكون ذلك بسبب القصور في اصطياد مواطن السوء في النص الشعري المقروء أو التغاضي عما يبتغيه المتلقي؛ بوصفه طرفاً ثالثاً مكملاً للثالوث النقدي(الشاعر والقصيدة والمتلقي). مع أن قدامة لم يغفل المناسبة التي قيل فيها الشعر الممثل به في معرض الحديث عن عيوبه اللفظية.

ومثل هذا يقال في القراءات المعيبة للفظ من جهة فضاعة التوحش مكتفيا بذكر الأبيات ومناسبة القول والقائل، فإذا وصل الى عيب المعاظلة حدد لها معيارا هو الفحش في الاستعارة بعد أن مثل لها بنماذج شعرية قليلة وجدها تصطدم مع نماذج شعرية جاهلية؛ لذلك استدرك بمعاذير تجيز لـ(امرئ القيس وزهير وعنترة وطفيل وعمرو بن كلثوم وأبي ذؤيب والمخبل) استعمالها لأنها على حد قوله: (ليست منافرة للعادة ولا بعيدة عما يستعمله الناس) [4]؛ علماً أن المعايير الاخرى عند قدامة هي (منافرة العادة ومداخلة الشيء في غير جنسه وعدم اللائقية وبقاء النكير) وهو لم يعط المعاظلة تعريفا خاصا بها بل اكتفى بما سمع من قول أحدهم فيها وسؤاله آخرين عنها. [5]

ثانيا/ تسلطية ـ إكراهية:

كانت لقدامة بن جعفر رؤية نقدية تسلطية وهو يترصد عيوب الشعر فصار الفعل الكتابي عنده عبارة عن جهد واع يوازي او يفوق الفعل الإبداعي؛ ففي حديثه عن عيوب الوزن ومنها التخليع قال: (هو خروج الوزن عن الذوق السليم) [6] فما يكون للمتلقي إلا أن يذعن لهذا التحديد غير المغني فارضا عليه تقبل الفكرة

على نصوص شعرية لشعراء جاهليين أمثال الأسود بن يعفر وعروة بن الورد وعبيد بن الأبرص؛ ثم قال: (فما جرى من التزحيف هذا في القصيدة او الأبيات كلها أو أكثرها كان قبيحا من اجل إفراطه في التخليع واحدة ثم من أجل دوامه وكثرته ثانية) . [٧]

وذكر من عيوب القوافي في التجميع ومثل له ببيت من شعر عمرو بن شأس والشماخ وكذلك فعل مع (الإقواء) مستشهداً بشعر القدماء . وإنه في شعر الأعراب كثير وهو لا يقع عند المولدون لأنهم عرفوا عيبه؛ من دون أن يكترث لأمر المتلقي، فلا يوضح له ولا يعلل بنماذج ولا يعلق على ما يطرحه بتمثيل شعري. وهكذا لا سلطة للمتلقي ولا سلطة للنص الشعري نفسه على قدامة إذ كيف عرف المولدون الإقواء ولماذا جزم بعدم وقوعه عندهم، هل كان يستند الى حجة إحصائية أو دليل منطقي يؤكد خلو شعر المحدثين المولدين من الإقواء، وإذا كان الامر كذلك فهل يعني هذا أنه ينتصر للشعر المحدث ويتحامل على الشعر القديم.. ولو أن قدامة وضع المتلقي/ النص ثنائية في رصده النقدي هذا لتوصل إلى نتائج لا تسلط فيها ولا إكراه .. ومثل هذا يصدق أيضاً على عيوب القوافي الاخرى اعني (الإيطاء والسناد) فقد عرفهما تنظيرياً ولم يمثل لهما إجرائيا الا ببيتين من الشعر فقط. [٨]

إن خطورة التسلط النقدي تتأتى من أنها تحيل المتلقي إلى مستهلك سلبي محض؛ بدلا من أن يكون مشاركا له مثل ما للناقد من دور في التوجيه والحكم والتأمل والتعليل والاستقراء والاستنباط. وان خطورة هذا الموقف قد تفضي الى هجر المقروء وعدم تذوقه؛ وهذا ما يشكل قطيعة مع الشعر لا سيما في أغراض المديح والهجاء والرثاء والغزل الذي يتجه نحو التغني بالصفات الجسدية بدلا من الفضائل النفسية. [٩]

ثالثا/ قاصرة أو سلبية

إن القراءة المعيبة عند قدامة هي قراءة مكتفية بالايجاز المخل، سواء من حيث التنظير أو التخييل والقصور الذي يوقع المتلقي في الحيرة والارتباك، فمثلا انه لما قدم الى ذكر العيوب العامة للمعاني اكتفى بالقول: إن عمومها كعموم النعوت التي قدم ابوابها وعددها في القسم الأول من كتابه .. ثم اكتفى بذكر فساد التقسيم ولم يمثل له، وفساد التكرير ودخول أحد القسمين في الآخر، وفساد المقابلات وفساد التفسير [١٠] فإذا وجد أن هناك تعارضاً بين المعاني(النعوت) التي سبق أن ذكرها ، والعيوب التي يعزم أن يذكرها ؛ نراه يفصل القول كأنه يستدرك على قراءاته السابقة أو كأنه يحس أنه قد قصر فيها. ففي عيوب ايقاع الممتنع فرق بينه وبين المتناقض فهذا الاخير لا يكون ولا يمكن تصوره في الوهم. والممتع لا يكون ويجوز أن يتصور في الوهم[١١] فهو يخرج عن حد الغلو الذي يجوز أن يقع الى حد الممتنع الذي لا يجوز أن يقع، واقتصر في التمثيل له ببيت واحد لأبي نواس:

يا أمين الله عش أبدا دم على الأيام والزمن

ونرى في تعليقه النقدي على هذا البيت رؤية سلبية إذ يقول: ((فليس يخلو هذا الشاعر من أن يكون تفاءل لهذا الممدوح بقوله عش أبداً، او دعا له. وكلا الأمرين مما لا يجوز مستقبح..إن هذا وما أشبهه ليس

غلوا ولا إفراطاً بل هو خروج عن حد الغلو الذي يجوز أن يقع الى حد الممتنع))[١٢].

ومن مواطن التقصير والاقتضاب أيضاً ما نراه في بعض قراءات قدامة من عدم إيفائه بالتعريف فضلا عن توجهه السلبي في التمثيل والتعليق، من ذلك، مثلا، حديثه عن عيوب ائتلاف اللفظ والمعنى، ذكر منها الأول وهو الإخلال معرفا إياه بأنه (أن يترك من اللفظ ما به يتم المعنى) ومثل له بقول عبيد بن عتبة بن مسعود وعروة ابن الورد والحارث بن حلزة. والثاني هو عكس العيب المتقدم وعرفه((بأن يزيد في اللفظ ما يفسد به المعنى))[١٣] ومثل له ثم ذكر من عيوب ائتلاف اللفظ والوزن الحشو والتثليم والتذبذب والتغير والتفصيل.. أما عيوب ائتلاف المعنى والوزن : المقلوب والمبتور وسار على الشاكلة نفسها في الاقتضاب والابتسار. ومثل هذا يقال عن عيوب ائتلاف المعنى والقافية وهي التكلف في طلب القافية والإتيان بالقافية لتكون نظيرة لأخواتها في السجع.[١٤]

رابعا/ نفعية ـ ادعائية:

ان هذا النمط من التوجه النقدي في قراءة الشعر العربي قديمه وحديثه قد ينطوي على غايات نفعية يريد القارئ من خلالها الانتفاع بتأكيد النقدية تارة، وفرض املاءاته على قرائه تارة اخرى؛ من دون أن يكون للقيم الجمالية او الفنية دور يذكر في التوجه النقدي ذاك؛ فهو يسعى الى افهام الشاعر أولاً كيف يبدع والمتلقي ثانيا كيف يقوم الشعر الذي يسمعه؛ وبذلك يحيل فعل الابداع إلى فعل تعليمي متناسيا أن الإبداع فعل يتمازج فيه الإلهام والموهبة مع الدربة والتطبع، منطلقا من وقوعه تحت تأثير المنطق الارسطي والفلسفة اليونانية.

وادعاء قدامة بأن له السبق والريادة في نقد الشعر، بمعنى تخليص جيده من رديئه، يتعارض مع ما كان متعارفاً في عصره من مصنفات نقدية في نقد الشعر مثل عيار الشعر لابن طباطبا، ونقد الشعر للناشئ الأكبر المعروف بابن شرشير. وهو بادعائه هذا لا يسيء إلى من سبقه فحسب، بل يسيء إلى شعراء قدماء، وهو واقع تحت تأثير الفلسفة والمنطق الإغريقيين، يقول الدكتور إحسان عباس: ((لا ريب في أن الثقافة اليونانية كانت من أبرز المؤثرات في قدامة بن جعفر فقد كان ممن يشار اليه في علم المنطق وعد من الفلاسفة الفضلاء)).

وقد أشار هذا الباحث أيضاً إلى مسائل من مثل عدم اطلاع قدامة على نقد الشعر في القرن الرابع وتحديد الصفات الإيجابية حسب نظرية الفضيلة الأفلاطونية، والعلاقة بين قدامة وكتاب الشعر لأرسطو وانعدام الاهتمام بالحالة النفسية في نقد قدامة، ولماذا لم يهتم بالسرقات على الرغم من احتفاله بالمعنى[١٦]، وانتهى الى القول: ((ذلك هو قدامة في النقد يقف موقف العالم يسيء الظن بالقارئ فيضع له الأنموذج ليقيس عليه.. لقد اراد أن يكون (معلم) النقد في تاريخ الأدب العربي، كما كان أرسطوطاليس في تاريخ المنطق...كان كتاب قدامة كالمعلم المتزمت.. وإذا كان كتابه قد لقي من المهاجمين أكثر مما لقي من المؤيدين..فإنه يمثل اجتهاداً ذاتياً مدهشاً وقد كان موضع الرضى لدى الذين آمنوا بقيمة الفكر والثقافة الفلسفية)).[١٧]

الخاتمة

ان القراءة عند قدامة فعل ابداعي يوجه القارئ ــ بوصفه تصوراً ذهنياً في مخيلة الناقد وشكلاً ضمنياً في ذاكرة المبدع ــ توجيها واعيا وقصديا بناء على تصميم فكري، وإرادة ثاقبة في تحقيق أهداف غير معلنة، وقد تكون أحيانا مبطنة بدوافع مريبة سواء من حيث الاقتصار على التمثيل على بعض النماذج. الشعرية القديمة أو من حيث ادعاؤه الريادة في وضع كتاب في نقد الشعر، وأن من سبقه كان إما متخيلا او قاصراً ــ على حد وصفه ــ.

ومهما يكن من أمر فإن كتاب (نقد الشعر) يبقى إبداعاً عربياً يعكس التطور المعرفي الذي شهده القرن الرابع للهجرة من ناحية الفكر والثقافة والترجمة، وما إلى ذلك من صنوف الثراء الفكري الذي أغنى الحضارة الإنسانية عموماً.

الهوامش والمصادر

(١) ينظر لسان العرب، ابن منظور/ ج٢ -٩٣٧-٩٣٨.

(٢) نقد الشعر ، ابو الفرج قدامة بن جعفر تحقيق: كمال مصطفى/ الطبعة الثالثة القاهرة ١٩٧٨/١٦.

(٣) ينظر: نقد الشعر/ ١٧٢-١٧٦.

(٤) ينظر: م.ن / ١٧٧-١٨٠.

(٥) ينظر: م.ن / ١٧٧.

(٦) ينظر: م.ن. / ١٨١ ــ ١٨٢.

(٧) م.ن / ١٨٢

(٨) ينظر: م.ن / ١٨٥ ــ ١٨٨

(٩) ينظر: م.ن / ١٨٩ ــ ١٩٩.

(١٠) م.ن / ١٩٩ ــ ٢٠٤.

(١١) ينظر : م.ن / ٢١٣ ــ ٢١٤

(١٢) م.ن / ٢١٤

(١٣) م.ن / ٢١٨

(١٤) ينظر: م.ن / ٢١٦-٢٢٤.

(١٥) تاريخ النقد الأدبي عند العرب (نقد الشعر) من القرن الثاني حتى القرن الثامن الهجري، الدكتور إحسان عباس دار الشروق للنشر الأردن ١٩٨٦.

(١٦) ينظر: م.ن / ١٩٠-٢١٣.

(١٧) م.ن / ٢١٤.